

ردنى كالتقديم، وجدد أيامى



مراجعة

نيافة الأنبا/ بيمن
أسقف قوص ونقادة

بقلم

الراهب /متياس الصموئيلي

مطرانية قوص ونقادة للأقباط الأرثوذكس

كاتدرائية أول الشهداء بقوص

ردني كالقديم،

وجدد أيامي

مراجعة

بقلم الراهب

نيافة الأنبا بيمن

متياس الصموئيلي

أسقف نقادة وقوص

اسم الكتاب: رذني كالقديم ودد أيامي
المؤلف: الراهب متياس الصموئيلي
تصميم الغلاف: م جورج جبرة
التصميم الداخلي: رأفت فهميم عطيتو
المطبعة: أ مدحت حنا
الطبعة: الأولى أغسطس ٢٠٠٠
رقم الإيداع: ١٧٤٥٨ / ٢٠٠١
النشر الإلكتروني: نوفمبر ٢٠٢١



صاحب القداسة والغبطة البابا المعظم

الأنبا تاووضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريق الكرازة المرقسية



نيافة الحبر الجليل

الأنبا ساويرس

أسقف ورئيس دير السيدة العذراء المحرق
العامر



نيافة الحبر الجليل

الأنبا باسيليوس

أسقف ورئيس دير الأنبا صموئيل المعترف
العامر



نيافة الحبر الجليل

الأنبا بيمن

أسقف قوص ونقادة وكل توابعهما
ورئيس دير رئيس الملائكة ميخائيل العامر
ببرية الأساس



مثلت الرحمات نياقة الحبر الجليل

الأنبا كاراس

أسقف عام المحلة الكبرى وكل توابعها

مقدمة

... إن شخصية (أبينا توما) التي هي محور موضوع هذا الكتاب ما هي إلا شخصية وهمية من وحي الخيال، بصدق لم أجدها في أرض الواقع ولم أرها، لكن قصدت من كتابة هذا الموضوع إظهار ثلاث حقائق للفائدة والأهمية:

(١) إن الشيطان خائن متمرس في فنون الحروب فمن الممكن أن يحارب بالراحة واللين - كما في هذه القصة - وليس بالقسوة والعنف المعروف والمعتاد فقط.

(٢) إن جهاد الإنسان لا يمكن أن يضع هباءً وسوف يكون سندا له في وقت الحاجة وأيام الضعف كما قال الكتاب. " فلا نفشل في عمل الخير لأننا سنحصد في وقته ان كنا لا نكل " (غل ٦: ٩)

(٣) والأهم من النقاط السابقة أن الله الرؤوف لا يشاء موت الخاطئ ولا يجب هلاك إنسان مثل ما يرجع وتحيا نفسه...

... أيها الفادي العظيم إني أراك تنزع قيودي الآن

بيديك والماضي كله قد احترق في لهيب عينيك التي تخرق
أستار الظلام. لن أراه. لن أرى ضعفي وماضي الأثيم.
إنك تضع ترنيمة جديدة على شفتي ثم تلهمني سر الترم
كله. فعندما ألبستني ثوب برك عرفت أن الذين يروني
سيعرفون أنه ليس ثوبي. كنت أظن يا سيدي أنك أعترته
لي أياما لكنك تركته معي فلا أخزي. أشكرك....

الرب قادر أن يجعل هذا الكتاب بركة لكل القراء

بشفاعة سيدتنا والدة الإله القديسة مريم! ... وصلوات

صاحب الغبطة والقداسة البابا المعظم

الأنبا شنودة الثالث

وشركائه في الخدمة الرسولية الأحبار الأجلاء

نيافة الأنبا ساويرس

أسقف ورئيس دير المحرق العامر.

نيافة الأنبا باسليوس

أسقف ورئيس دير الأنبا صموئيل المعترف.

نيافة الأنبا بيمن

أسقف نقادة وقوص.

أمين

الراهب متياس الصموئيلي

(١)

... كأن خمسين عاما مضت حين ذهب إلى
الدير لأول مرة، ما أجمل البرية والصحراء.... ما أحلى
الهدوء.. الكل نقي.. الكل جميل وبالجمله كل شيء
طاهر هناك..

وأخذ يسير في زوايا الدير وأروقتة ينظر إلى الصورة
المصغرة التي لأورشليم السمائية. ليرى ويسمع قصص
وكأنها تروى عن سكان السماء بحق.. فهذه قلالية أبينا
بولس البسيط الذي كان لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه
فاق جيله بطهارة قلبه وتواضعه... وتلك قلالية أبينا
أندراوس الكفيف صاحب البصيرة الروحية والصوت
الشجي والدموع السخية، وصديق سواح برية القلمون..
وهناك قلالية أبينا أغاثون الذي بدأ حياته بقوة وخطى
ثابتة، وصار جهاده مضربا للمثل، ومثالا يحتذى به
الجميع، وقد نفذ بدقة قول آباء البرية الأول "حياة

الإنسان كلها يوم واحد، وذلك بالنسبة للذين يجاهدون بحماس.."

مما أذهله وجعله يتساءل... عجيبة حقاً هذه الحياة... فهل أنا في السماء؟!

قليل له لا.. أنت ههنا على الأرض.. وأي أرض هذه؟ إنها تلك الأرض التي سقيت بالدمع والعرق والدم، وتباركت بالصلاة. هنا المكان الذي شهد انتصار آباءنا الأولين على عماليق ولا يزال... هنا مكان الأبرار... هنا مكان التجلي والإلهام، أنت هنا في الدير... حيث تجد ما يسد حاجة العقل إلى الحقيقة، والإرادة إلى الخير، والروح إلى العزاء والامتلاء، والنفس إلى السلام والاطمئنان.

هنا المكان الوحيد الذي يداني السماء بكل مجدها، لأنه في كلا المكانين - فقط - لا يزوجون ولا يتزوجون بل يعيشون كملائكة الله.

فالتسبحة أصبحت طعامهم، والمزامير صارت لهم
غذاء ليلاً ونهاراً، ومن هنا جاءت طهارة الأجساد ونقاء
القلوب.. وصفاء النفوس وجاءت أيضاً تسميتهم بالبشر
السمايين أو الملائكة الأرضيين.

فقال في نفسه "حقاً هذه السماء بعينها.. وإن
لم تكن فهي على الأقل أرض جديدة يسكن فيها البر
ويحيا الأبرار."

وسمع ورأى وأطلق لعينه العنان كي تتفرس في
كل ما هو مقدس، وراح يتطلع إلى كل شيء... ومهما
اشتتهه عيناه لم يمسكه عنهما هذه المرة ولم لا؟! ما دام
الكل طاهرًا أمامه !!

وهكذا شعر بأنه يسير في الفردوس حقاً، والآباء
كالأشجار المثقلة بالأثمار.

آه.. ما أجمل الحياة والعشرة مع الله !! إنها متعة
لا تدانيها أي سعادة أخرى، أشكرك يا ربي... شهوة
قلبي أعطيتني، ورمق من بعيد مقصورة مكتوبا عليها "هنا

جسد القديس الأنبا موسى الأسود" وسأل أحد الآباء
من هو هذا القديس ؟

... إني أعرفه يا أبي ولكني أريد أن أعرف منك
المزيد أريد أن أؤكد ما أعرفه لأمتدح التوبة وأبشر الخطاة،
يا لعمق أمانتك وقوة توبتك أيها القديس
اذكري أمام عرش النعمة أنا الضعيف،
أذكر الكنيسة والرعاة وكل الرعية.

أذكر الخطاة الذين يحبونك كثيرا يا شفيع
اللصوص وسبب رجاء للذين هم على الطريق..
وأخيراً، وبعد يوم حافل لاهث وراء كل فضيلة وكلمة
منفعة. استند إلى جزع شجرة كبير قديم الأيام قد قيل له
بعد ذلك إنها شجرة الطاعة فوقها لافتة صغيرة مكتوب
عليها "محبة المسيح غربتني" وأخرى مكتوب عليها "أولئك
يا رب الذين أشرقت عليهم بشعاع من حبك لم يحتملوا
السكنى بين الناس.." "

وأطبق جفونه ليتأمل ما رآه في فردوس الأطهار،
 واسترجع ما قد اخترنه من ذكرى أجمل أيام حياته،
 وغاص في بحار التفكير ولم يعلم كم من الوقت مضى،
 وأي ساعات قد مرت، إلا إنه قد انتبه على صوت أحد
 الآباء الذي أخذ يربت على كتفه ويهمس في هدوء... يا
 أخ مرقس الكل خرج عداك... أنا آسف يا ولدي..
 الزيارة قد انتهت، والرحلة غادرت الدير.

كم كانت هذه الكلمات صدمة لنفسه.. وكم
 كان وقعها قاسيا عليه فأخذ الأب ينبهه أكثر من مرة،
 وهو لا يزال سابحا في لجة أفكاره محدثا نفسه " كل ما
 هو طاهر في هذا المكان سوف يتوارى عن عيني، و
 يختفي طالما انتهت الزيارة.

وأعود إلى العالم... العالم المليء بالمتناقضات...
 وأعود إلى العالم حيث المنطق الضعيف والقوانين المعكوسة
 وصوت المادة ورنين الفضّة... حيث الغابة الكثيفة.
 والبحر العميق وما يحويه من كائنات يأخذ فيها القوي

حياته من الضعيف وبالجملة، كيف أرجع إلى العالم حيث غياب الله كثيرا في اليوم الواحد بين الأقرباء وأهل البيت الواحد أيضًا؟! (١)

(آسف جدًا لكم جميعًا أيها القاطنون بين الزحام ووسط الضجيج، ولكن ليس هذا أيضًا اتهام باطل بل حقيقة في كثير من البلدان، وأغلب الأماكن !!!)
وعلي أن اختار أنا المسكين

وبعد.. لم يجد لتقديمه طريقا للخروج من الدير وكأن ملاكًا وقف أمامه بسيف من نار قائلاً "ومن هنا لا تخرج!!"

ولكن.. لماذا يخرج وهنا الحياة ؟ وإلى أين يذهب وصوت الله قد سمعه واضحًا وصريحًا على ملامح كل أب في الدير عن روعة الحياة مع الله، والسكنى في البرية؟؟
هكذا قال في نفسه

(١) ليس كل الحياة هكذا، ولكن أيضًا يوجد هذا والكثير والكثير...

وكان هذا الأب لا يزال يتأمله في صمت وينظر إليه بعين العطف والإشفاق وكأنه قد قرأ أفكاره. لأنه سمعه يقول إن ما يدور بداخلك هو صوت إله لا صوت إنسان. فلا اعتراض..!!

ولم يفاجأ بذلك لما لهذا الأب من شفافية وروحانية ونظرة ثاقبة، وسمعة طيبة، وما كان عليه إلا الطاعة والخضوع وكفي.. وبدأ يشعر بالراحة شأنه شأن مسافر وصل إلى غايته، وفي هذه اللحظة الحاسمة اختار أن يتكلم. بل اختار طريق الموت لكي يحيا ^(٢)

وقال يا أبي أريد أن أقابل الأب المسئول.. وهنا فهم الأب ماذا يعني وما هو قصده، وأخذه بفرح إلى شيخ تعلق وجهه سمات الهيبة والوقار، الذي حلما عرف رغبته في أن يحيا راهبا مانع كثيراً في البداية وقال له "يا بني ليس لك قدرة على الحياة الرهبانية، وهذا الموضوع

^(٢) قيل عن الرهبنة أنها موت طوعي من أجل الحياة الأبدية.

صعب عليك لقلة العزاء الجسدي، فليس عندنا تسليّة
ولا راحة جسدية، فملابسنا كما تراها حقيرة لا
توافقك... وربما يلحقك ضجر من الشيطان، ثم إنه
يوجد أبرار وقديسون في العالم فعد واحيا مثلهم..

فخر يقبل قدميه وقال "يا أبي القديس اقبلني من
أجل محبة المسيح لا تردني لئلا أهلك، احسبني كأجير
عندك ولا تدعني أعود إلى العالم ثانية ولئلا أيضًا تقلق
بسببي في مستقبل الأيام. فدعني التقط من الفتات الساقط
من مائدة هؤلاء الأبرار القاطنين في هذا المكان المقدس.

فأقامه وخاطبه قائلاً "يا بني إنني أخاف عليك
من لؤم الشياطين وخداعهم وأنت مازلت صغير السن
حديث الأيام. لأنه سوف يثأر عليك الشيطان يا ولدي
لأننا نشبه الخراج^(٣) الخبيث في جسم العالم - في نظر
الشيطان - ومن وقت لآخر يتمنى استئصاله.

(٣) الورم الخبيث

وبكي بمرارة وقال ببركة صلواتك يا أبي سوف
ينقذني الرب من حيل إبليس ومكايد.. أقليلة هي
تعزيات السماء هنا يا أبي ؟!

وشعر الشيخ أنه قد وطد العزم على الصمود
والاحتمال والعيشة الخشنة والحياة الديرية والرهبنة.. وهنا
انفجرت أساريه وتغيرت ملامحه وحل محلها ابتسامة
الرضا والقبول، ووضع يده على كتفه وأخذ يوضح له
معالم الطريق الروحي. إذ تأكد من استقامة قلبه واشتياقه،
وصدق نيته في اختيار الطريق والسير مع الله.. وقاده إلى
أحد شيوخ الدير المختبرين وقال له : "يا أبانا - زوسيما
- اقبل هذا الأخ ومن اليوم فصاعدًا سوف يكون تلميذًا
وابنًا لقدسك، وعليك أن ترسم له تدبير حياته حسب
إمكانياته - الروحية والجسدية - ثم التفت إليه وخاطبه
بكل إبوة حانية : وأنت يا أخ مرقس أطع معلمك
كإسحق لأبيه إبراهيم ليكون لك خير بسببه ولا تخالفه
البتة لكي يساعدك على خلاص نفسك.

فسجد له وقبّل يديه وقال... أنا لا استحق أن
أكون خادمًا له، الرب يرحمني بصلواتك يا أبي
وتركه الأب المسئول ومضى، وجلس مع أبيه -
زوسيمّا - الذي أخذ يفحصه بالتدقيق، ويفتش قلبه
ليقف على كل شيء في حياته، وأثناء ذلك كان يتمتم
بصوت غير مسموع، وتارة يرفع وجهه إلى السماء،
فأحس أنه يصلي لأجله، وشعر أن السماء قد استجابت
!!

وقال له اعلم يا ولدي "إن من يريد أن يعيش
راهبًا فليذل نفسه بالصلاة والصوم وبغير ذلك لا يفلت
الراهب من القتالات، ولا ينجو من الحروب.

وإن الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح
يسوع يُضطهدون (٢ تي ٣: ١٢)

فاستعد للضيق والتجارب والرب لا ينسى
جهادك وتعب المحبة...

أحرص على صلواتك الخاصة - الانفرادية -
 وصلواتك مع الآباء، وكلما دق الناقوس فلا تتوان قط
 عن الذهاب إلى الكنيسة، وخذ بركة الشماسية متى
 سنحت لك فرصة لذلك لكي تنال بركة المذبح المقدس
 وتسمع صوت الله كالطفل صموئيل.. وإن عصاة هرون
 لم تفرخ وتثمر إلا في الهيكل (عد ١٧: ٧، ٨)

ولا تدع ذكر اسم الرب يسوع ينقطع من فمك
 وقلبك وفكرك، كي يطرد عنك أفكار العالم وشهواته.
 قل دائما :

✠ يا ربي يسوع المسيح بن الله ارحمني أنا عبدك
 الخاطئ.

✠ يا ربي يسوع المسيح بن الله اعني أنا عبدك
 الخاطئ.

✠ أشكر يا ربي يسوع المسيح.
 وأما عن عمل يديك فلتذهب غدا بعد قداس
 الصباح إلى المطبخ لتساعد اخوتك - تلاميذ الرهبة -

كن دائما كالأعمى والأطرش والأخرس من أجل الرب،
التمس الأعذار لكل أحد - ليس هناك أفضل من أن
يرجع الإنسان باللوم على نفسه في كل شيء - لتكن
لك محبة للجميع، ولا تكن لك دالة مع أحد، لا يزد
كلامك عن سلام.. حاضر.. نعم.. أخطأت..
سامحني.. اذكروني في صلواتك يا أبي.. لا تطلب المثالية في
أحد، بل كن أنت مثاليًا في كل شيء.. واعلم أنك للألم
والعمل قد دعيت لا للبطالة والثرثرة، وجاهد يا ابني في
معركة الطهارة - كيوسف - حتى تصير ملكًا.

وصلى له.. "اقبل يا رب عبدك هذا الذي فر من
شور العالم ومكايدته، ولاذ بك، استغاث برحمتك. اغفر
له خطاياه ودربيه على عمل إرادتك الصالحة" والرب
يعينك على خلاص نفسك يا ولدي، وها قلايتك
فأسكن فيها ولا تبرحها لغير الضرورة والاحتياج.

وجاءت قرية لمزرعة الدواجن.. كله للخير..
نشكر الله ولم يعلق على وجودها هكذا في ذلك المكان
وهذا الضجيج، ورائحة المخلفات !!

وسجد لأبيه بفرح وقبل يديه المباركتين.. وخرج
من لدنه يقرع صدره قائلاً : "يا ربي يسوع المسيح ما
أحلاك، وما أقربك اليوم إلى قلبي. يا سيدي أقدم لك
شبابي قبل أن يذبل كندر متواضع لا أملك سواه، وإن
كان هو أيضاً هبة منك فاقبله كفلسي الأرملة وخبرات
الشعير، وأعني يا ربي لأني بعهدي فيكون دخولي الدير
✠ سببا لمزيد من الإيمان بك..

✠ والتسليم لك..

✠ والثبات فيك إلى الأبد..

وبدأ الحياة مع الله داخل الأسوار. لكن في حرية
مجد أولاد الله، وطقس الملائكة، ولم تطل مدة اختباره عن
تسعة أشهر وذاع صيت فضائله، ولم ينتظر الآباء أكثر ما
دام قد نجح في كل اختباراتهِ وتبادلوا شعور الألفة والمحبة

معاً، وأجمعوا على تزكيتِهِ ليصير راهباً ولم يأت ذكر اسم الأخ - مرقس - إلا فيما هو حسن وطاهر وجليل. وذهبوا إلى أب اعترافه وأخذوا يمتدحوه لحسن تدبيره. ورعايته واهتمامه، وثمار تعبهِ، ولكي يأخذوا كلمته عن ابن الطاعة يعنون - الأخ مرقس - فنظر إلى السماء - وكأنه يرى مستقبله ملبداً بالغيوم، وسماء ابنه مخضبة بالدماء - وقال :

"هذا الأخ يشبه مركبا مملوءاً بالخير، ولكني لست أعلم إن كان يصل إلى الميناء أم لا وكمن همّ أن يكتب ويعبس ولكنه عدل سريعاً... عموماً إن وثقاً وشدائد تنتظره (أع ٢٠:٢٣) ولي ثقة ورجاء في الرب.. وأخذ يتمتم بصوت ليس واضحاً وكلام غير مفهوم... " إن تعوج أودبه. ولكن رحمتي لا تنزع منه (٢صم ٧:١٢-١٥) وأوماً برأسه بابتسامة ضعيفة وأبدى موافقته.. وإن كان هذا أزعج الآباء المجتمعين حوله بعض الشيء.. ولكن سريعاً ما تناسوا ما حدث وهذا الأمر.

ودقت أجراس الدير بالطريقة الحزائني لتعلن عن
نهاية وبداية حياة.. وهكذا مات الأخ - مرقس - عن
العالم ليحيا في المسيح يسوع، وتمت طقوس ومراسم
الرهينة والموت.

وخرج الراهب "توما" من الكنيسة بزيه الرهباني
كمن وضع عليه إكليل البر وملابس التقوى والورع،
وجاءت رسامته كبلسم على قلوب الآباء، ووسام على
صدر مدبره، وزاد هو في تواضعه ونسكه وتقشفه ووضح
من البداية إنه قد اختار لنفسه المُتْكأ الأخير والنصيب
الصالح.

وحاز مسلكه قبول الكل وفرح بذلك مدبره،
وتقدم أبونا في النعمة ناميًا في السلوك الرهباني بطهارة
وبر... وفضلاً عن ذلك فقد استطاع بجلوسه وحده
وبسكونه وهروبه من اللقاءات من إطفاء سكير آتون

الشهوة الجسدية وتهميدها كالرماد ^(٤) فكنت لا تراه إلا
وتشعر وكأنك أمام ملاك ربما استأذن خالقه في أن يعيش
حياة البشر ويزوق آلام الجسد وتعب الناس. أو قل
إنساناً لا يستحق العالم وطأة قدميه !!

وتسابق الجميع كلٌ ينعته بأحلى صفات القداسة
والطهارة وكثيراً ما غطى الخجل وجهه والاحمرار محياه،
وكل ما سمع ذلك أعطى المجد لله، وأدار دفعة الحديث إلى
خالقه وتواري وشكر الله واختفى... وهكذا عاش في
طمأنينة مع الله الذي أعطاه الصدارة في كل حياته، وفي
سلام ومحبة مع أخوته الرهبان والآباء والشيوخ.. وهذا هو
الوضع العادي في نظره، والمفروض أن يكون عليه
الجميع..

^(٤) لأن ثمن الطهارة السجن كما يوسف

ولكن !! ”سيأتي اليوم“ هكذا قال الشيطان في
نفسه !! ومن أنت يا توما، وما هي قوتك، أيها التراب
ورماد الأرض ؟

ولماذا تتناسى أصلك ومن أنت أمام روح ناري لا
يعرف الهزيمة ولا كيف يكون الانكسار ؟

(٢)

وظهر نبوغ أيينا توما في كل عمل أُسند إليه في المطبخ.. في المكتبة.. في عمل القربان المقدس.. في كل شيء، وبالجملة فقد كان الله معه فكان راهبًا ناجحًا. وكثيرًا ما حاول الأب المسئول أن يثنيه عن عزمه ويجعله يترك المطبخ ويهتم بطقوس الكنيسة والألحان - والتي تقدم فيها كثيرًا - دون جدوى، وكان يعتذر بأدب ودماثة خُلُق عن قبول الراحة، ويقول ينبغي أن نفعل هذه ولا نترك تلك - يقصد لا يترك أعمال المطبخ... أنا لا استحق خدمة الآباء وأتمنى أن أنال بركتهم إلى النهاية.. إنها خدمة جليلة فلا تحرمني منها يا أبي وسوف تعضدني بركتهم في زمن الضيق ووقت الحاجة، وما أكثر الضيقات في هذا الطريق الملوكي.. والذي كثيرًا ما يحسده الشيطان وهكذا تركه كدرس "معاش" ليتعلم الكل روح الخدمة والاتضاع.

كان قد وضع حياته نظام لا يتغير.. من القلاية للكنيسة ومن القلاية للمطبخ لا أكثر.. وكان أيضًا حريصًا جدًا على وقته ووقت اخوته الرهبان فلا يزور أحدهم إلا لسبب مرض أو ضعف يلحق به ويقول : ”الراهب في القلاية كأنما يسكن عالمًا آخر.. هو في السماء بعينها لا يتحدث إلا في السماويات.. عن حضن إبراهيم وأكاليل القديسين والطغمت المحيطة بالسيد المسيح“

فكيف أزعجه بحديثي مهما بلغ هدفه ؟!
وكان لا يعرف أيضًا أي شيء عن الدير ومبانيه ومزارعه، أما عن زوار الدير فلا يعرفون عن أبونا سوى اسمه وعزوبة صوته حينما قرأ فصل الإنجيل في الكنيسة - بعد تمنع شديد ولأجل الضرورة والإلحاح - وهو لا يعرف عنهم أي شيء، وكأنه متوحد يسكن الدير لمنفعة اخوته الرهبان.. !!

وبعد... أين الحروب والشياطين ؟!

وهل انتهى عصر الجهاد، وعصر القتال والتغصب؟!
 وأين توقع الشدة بعد الشدة، وهىء نفسك للتجارب
 وكلام يشوع بن سيراخ بينما الأيام تمر في سهولة ويسر؟!
 وما معنى بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله.
 (أع ١٤ : ٢٢) فأين كل هذا بينما أبونا توما ينمو
 وينمو ويكثر؟!!

نعم كانت الشياطين تعوي كالذئاب من بعيد ولا
 تقوى على الاقتراب منه فقد كان أمامهم لا يزد عن كونه
 جثة هامدة ولكن يحرسها الأسد الخارج من سبط يهوذا
 (رؤ ٥: ٥)

وهل يقدر الشيطان أن يقترب من فكر مقدس،
 وقلب مخصص وجسد مدشن للرب؟!!

ولكن لا ننسى أيضاً أن الشيطان خائن متمرس
 يعرف حدود مهمته ولا يهمله إلا متى يوقع بالفريسة...
 حقاً قد عيى الشيطان بأمره ولكنه - أخيراً - رأى إنه لا

حيلة له إلا عن طريق الدسيسة وهكذا فعل، ومن هو

توما الغلبان لو ترك حارسه أو تركه حارثه ؟!

ولكن... من أين تأتي الحروب ؟!

ولأول مرة يخالط أبونا توما الزوار ويندس وسط

الناس ^(٥)، وبدأ يتناقل الأخبار ويهتم بالعالم وبما فيه. وها

قد صار من هو بلا هم يهتم بما ليس له فيه نصيب، وقد

أحنى ظهره تحت تركة مثقلة بالديون وطلب ميراثه في

الاموات !!! وتهاامت الشياطين، حقًا لقد جربنا معه

كل الحيل ولم نفلح وانهمزنا، أتيناه في صور نساء فلم

نقهره. في صورة ذئاب واشباح ولم نقدر عليه، فربما يأتي

بالوضع العادي - باللين لا بالقسوة - أترى بأية وسيلة

أسقطنا شمشون في يد دليلة ؟!

(٥) ليس كل راهب يتقابل مع الزوار هو أبونا توما، وعموما أنا آسف

جدًا.. ومعدرة لأبيننا توما أيضًا والذي ليس إلا شخصية من وحي الخيال

ولم أره في أرض الواقع !!!

أليس عندما أنامته على ركبتيها ؟! (قض ١٦: ١٩)
وهكذا الأب توما فلنتركه لأهله وذويه وضيوفه ليشغلوه
عن الصلاة.. دعنا نقف بعيداً لنرى كيف تسير الأمور
وننظر كيف تأتي سقطته وشر البلية ؟

ولم يفاجأ الآباء لذلك - بانشغاله - وقالوا:
”ربما أصدقاء قدامي طلبوا المشورة وكلمة منفعة“ (وأبونا
توما أهل لذلك) وتكاثر حوله الشباب والزوار جميعاً،
وقال البعض: ”ولكن أبونا توما ليس مسئولاً عن
الضيوف ولا هذا طقسه ولا مبدأه.“

وتضاربت الأقوال بسبب كسر أول عهد لأينا
الشبيه بالمتوحدين ! وبعد مدة قصيرة وأيام قلائل بدأ يثور
عليه جسده العفيف بسبب ثوبه البالي وجلبابه الخشن،
فتعاطف معه وأبدل ملابسه بأخرى أكثر نعومة وطلاوة،
لزوم المقابلات وأصول الواجهة وكلمة المنفعة !!!

ولم يعلم من أي ثغرة دخلت الحية كالسوس إلى
قلبه وأولادها أيضاً بدأوا في الثوب أن ينخروا، وكل هذا

وضع عادي مادام هو حريصًا من ناحية الخطايا الكبار
ومن قِبَل أشباح الليل والأحلام والخيالات..

وشعر مدبره بأن بؤادر الحشمة ظهرت على ابنه
في الاعتراف فهو لا يقوى على أن يتكلم كالقديم، ولا
يتحدث عن شيء جديد ولا يطلب إرشاد ولا حاجة
لمعونة، فارتاب في أمره..

آه.. في وسطك حرام يا إسرائيل فكيف تستطيع أن
تقف أمام أعدائك؟! (يش ٧: ١٣) وكلما حاول أن يسأله
عن حياته يجيب ”نشكر الله، الله يعوضك يا أبي“ ولا
شيء أكثر، وتأتي كل الردود مبتورة والإجابات غير
كافية، والكلام ناقص.. وحين يتركه يحدث نفسه ”لماذا
كل هذه الأسئلة وما السبب؟!“

لقد ضَيَّقَ مساحة الحرية أمامي كثيرًا والخروج من
الحديث معه أصبح مستحيلًا.. وماذا يريد مني هذا؟!
في البداية كنت أتقبل، وربما كان من حقه ولكن
الآن وقد أمضيتُ أكثر من عشرين عامًا في الرهينة ولم

أُهْزِمَ من الشيطان مرة واحدة وقد أصبحت مختبرًا في سن مبكرة وأكثر من الشيوخ فهمًا، وقد صرت أبا لكل زوار الدير ومدبرًا لبعض الآباء، فهل أبي يغار مني ويحسبني ؟! “ ولم يتذكر قول قداسة البابا شنودة الثالث - أطال الله عمره - ”لكي تحتفظ بتواضعك. احتفظ باستمرار بتلمذتك.. وإن شعرت إنك صرت معلمًا وأصبحت فوق مستوى التلمذة. اعرف أنك بدأت تسقط في الكبرياء.“

عمومًا لا يهم.. سامحك الله يا أبي ولكل شيء نهاية وسوف يكشف الله لك يومًا مقدار ما وصلت إليه من روحانية، وتعلم الحقيقة فلا ريبة فيما بعد ولا شك في المستقبل.

وهكذا أسلم نفسه حيث الخطر والخطأ والخطية والموت بجهل وحماسة !!!

وكأني بمدبره أقول أهذا صوتك يا ابني توما ؟!

أهذا صوتك وعهدك مع الله ؟!

آه يا ولدي.. لقد كان قلبي مكاناً منا لك كل

الأيام، فماذا حدث مني وماذا فعلت لك ؟!!!

وهكذا غنى الشيطان أغنية الانتصار لأول مرة في

حياة أبينا الحريص في كل شيء أو الذي هكذا كان قبلاً.

وأصبح الابن العاق غارقاً في نعمة الجهل دون أن يعلم

!!!

وفي غروب حياته الروحية ترك مدبره الذي عهد

إليه نفسه وانشغل بعيداً وأحب الخرنوب وعيشة أكليها

دون أن يشعر، وها قد تاه في القرى البعيدة وهو داخل

أسوار الدير وبين اخوته الرهبان ومحل القديسين!!

فكانت لا تأتي رحلة إلى الدير إلا وأبونا توما أول

المستقبلين وآخر المشيعين انسحاباً، ولم لا ؟ مادام هو

أبوهم ومدبرهم، وخلصهم صار هدفه الوحيد وعمله

الأساسي. هكذا كلفه الشيطان وعهدت إليه الحياة!!!

آه يا أبي توما مالي أراك تجوب ملتمسًا تعزية
البشر ونسيت الوصايا ”أختي العروس جنة مغلقة، عين
مقفلة، ينبوع مختوم“ (نش ٤ : ١٢)

وترك الأب توما معمله الروحي - قلايته - وأخذ
يتكلم عن الفضيلة كثيرًا إلى درجة أنه لم يجد وقتًا
ليمارسها.

واختلط عليه الأمر بين كلمة المنفعة ومنفعته
الشخصية وحب المديح.

وربما نار الشهوة - عفواً وسهواً أو دون قصد
وخلسة - ^(٦) وإن كان ليس لي الآن أن أتهمه بهذا وأكون
سابقًا للأحداث ولكن سوف نرى !

ولم يشعر بحياته، ولا بالكنيسة ولا بالقلالية، ويأتي
لنهاية اليوم ليحاسب نفسه - كعادة الرهبان - فكان

(٦) الذي يشهر سيفه بغير خبرة يجرح نفسه بسيفه فيصير أضحوكة بين
أصدقائه كما من أعدائه (هكذا قال القديس يوحنا ذهبي الفم)

يحدثها ”ألم يقل الكتاب أريد رحمة لا ذبيحة ؟!“
(مت ١٢: ٧)

والرهينة ليست انطواء ولا أنانية، وإن راحة الناس
وخلصهم أهم من الصلاة والطهي والكنيسة وماذا جنينا
من عمل اليدين، وما هو الربح من كثرة الطهي والتعب
للبطون ؟!

الأطعمة للجوف والجوف للأطعمة والله سيبيد
هذا وتلك (اكو ٦: ١٣)

نم الآن وأسترح وغداً نعمل ما يمليه علينا يومنا ومتاعب
الناس، وكيف ينام المسكين دون أن تأتيه أفكار النهار،
وهواجس الليل ؟... آه صدقني مشكلة صعبة التي قالها
لي عم (فلان) وأسرته... معقول هذا يحدث في العالم
؟.... إنه عالم غريب جدًا !!

فكيف ينقسم البيت الواحد وعلى أي شي ؟
بصدق على لا شيء !!

آه منك يا قايين لقد تركت وراءك نسل لا يحصى
من الكثرة ليدوم حزن آدم وألم حواء،
لا تخدع أباك اسحق أيها الابن يعقوب إلا
بالقدر الذي تستطع أن تحتمله في المستقبل، لأن الذي
يزرعه الانسان إياه يحصد.

إلى متى يا عخان تكون سبباً في هزيمة شعب
الله (يش ٧: ١)

وآه منك كثيراً يا أمنون لقد أصبحت سيرتك
قدوة لكل من هم على شاكلتك،
بصدق كلام صعب وأخبار في العالم غير سارة.
آه يا ثامار المذلولة في بيت أبيها !!
وانتفض.... ليتك تموت يا أمنون،
أو بالأحرى تتوب لتحيا كل ثامار في طهارة،
ليتك قرأت الكتاب وقصة ابنة داود ثامار (٢ صم ١٣)
لكي تأخذي حذرک ومن ثامار تتعطي،
ولكن هلك شعبي لعدم المعرفة،

لقد حزن قلبي بسببك كثيرًا،

آه أكثر من مرة من أجلك يا ثامار جيلي وهذه الأيام.
وكيف أستريح ويغمض لي جفن وأنا أراك أمامي كل حين
وأمنون أيضًا، لأنه يلبس ثوب القربة فلا أحد يفتن ولا
من يحترس، أليس هو ابن داود؟!!!

لقد خدعك أخوك أمنون قديمًا، فبرأك كل منصفٍ، وأما
أنتِ يا ثامار اليوم فما هو دليل تبريك بينما القصة
أمامك من آلاف السنين، وربما من أجلك قد كتبت !!!
إن استغاثة ثامار واعتراضها وصراخها لم يكن من
أجل عدم رضاها على ما حدث فقط، بل الأهم من
ذلك بكثير كان تحذيرًا لثامار كل الأجيال من أمنون
المتمارض، والدليل على ذلك أنه كان من الممكن أن
تصمت ولا تصرخ نادبة في شوارع إسرائيل - كما يفعلن
بنات اليوم خوفًا من العار - ولكنها أثرت ذلك وضحت
بنفسها من أجلكن يا كل بنات حواء، فهل كثر أن تردن

جميلها بحفاظكن على أنفسكن مهما كلفكن الامر.....

!!!؟

ليتكَ تنصتي أيضًا يا ثامار إلى هذا النداء الذي أُرسله
لك من جبل الأساس وبرية القديس الأنبا بسنتاؤس^(٧)
وجبال نقادة.

احترسي من الخداع والكلام اللين وأقوال
المتمارضين ولا تنسي أن لك شقيق اسمه يوسف بن
يعقوب عاش في طهارة في بيوت الغرباء،

آه ليتني كنتُ في العالم أحيًا بين الناس

✠ أحرس هاويل ليعيش.

✠ وأستر ثامار فلا تحزن.

✠ وأعظ أمنون ليرى أنها أخته فيحيا.

ونظر إلى تقويم السلام.... ياه عشرون عامًا....،

الأيام تمر بسرعة والسنون تنطوي مثلها،

(٧) أسقف فقط [٥٩٨م - ٦٣١م]

الكل قد تغير. إلا أنا حتى أن أولاد مدارس الأحد - الذين أخذت بركة خدمتهم - أغلبهم كبر وتزوج، فعلاً أغلبهم قد تزوج... رهبنة أم زواج، لا فرق، ربنا في كل مكان.. كل هذه وسائل وليست غاية، طرّقاً وليس هدفاً... غايتنا وهدفنا هو المسيح فقط وليس بأحد غيره الخلاص.

وها قد وضع مقارنة صحيحة بين الرهبنة والزواج، ولكن في وقت غير مناسب وزمن بعيد قد مضى عليه زمان. ألا تعلم يا أبي أن من وضع يده على المحراث لا ينظر إلى الوراء، حتى لو كان يريد أن يرى ثمار ما بذر وكم من المساحة قد حرث !!

وداعبه النعاس وثقلت جفونه ولكنه مثقلاً بأفكار الناس ومتاعبهم وانشغل بهمومهم، ولم يتذكر أنه لم يُصَلِّ ولا مزموّر من تديره اليومي إلا وهو نصف نائم، فلم يقدر، وقال لك الليل ولك النهار...

ألم أكن مع خرافك الضالة اليوم كله ؟! ولمن نترك
هؤلاء ؟! وإلى متى نتعلل بالمزامير وأنفسنا ؟!
عمومًا لا يهم غدًا نصلي إن وجد وقت. وغطَّ
في نعاس ثقيل ونام.
وهكذا أخرجه الشيطان سريعًا ببراهين قديمة،
ومنطق بالٍ، وأدلة عتيقة لا تصلح لشيء وإن كان
فللمزبلة، وانتهى يومه.

وكان مساء وكان صباح يومًا ضائعًا !!
وها قد استراح جسدك يا أبي توما، وبدأ الموت
يدب في الروح وأنت نائم، وهذا هو عمل الطعام البائد
وفعل تراب الأرض وأكل الحية !

لقد خدعه الشيطان ليلهيهِ عن تدبير نفسه ليوم
الدينونة، وكان ينبغي أن يعلم جيدًا أن له نفسًا واحدة لا

غير، سيكون ملزمًا أن يقدم جوابًا لله، عنها فقط. فماله
إذًا وقرينه ^(٨)!!؟

ونسى الراهب توما أن خلاص الناس مرتبط
بخلاص نفسه هو أولاً... ولم نسمع قط عن خاطئ
أقام أمواتًا !!

أما عن المطبخ فكان قد تركه منذ أن أبدل ثيابه،
ليت الإهمال كان قد أصاب المطبخ وحده وعمل اليدين
فقط بل امتد إلى كتابه المقدس وأيضًا كتابات مار اسحق
والقديس باسيليوس، لقد ترك الكل جانبًا.

وجاء اليوم الجديد بضيوفه ومتاعبهم وأحزانهم
وأفراحهم، وحزن وفرح وتاه أبونا توما، وتهلل الشيطان
الذي سحب من تحت أينا الفاضل البقية الباقية، وأبدل
له الكل..... عوض الطيب عفونة..... وعوض الجمال
كي (أش ٣: ٢٤)

^(٨) لسنا كلنا مطالبين عن خلاص الآخرين لأن كل واحد منا سيعطي
عن نفسه حسابًا لله (رو ١٤: ١٢).

وبدأ الأب توما يتفرس في كل شيء ولكن بطريقة
تغاير الطريقة الأولى - يوم مجيئه إلى الدير - ورأى الدير
من منظار آخر، وبصر غريب وبصيرة عمياء وعيون
مطموسة فوجد نفسه كأنه صخرة، لا يحس لا يشعر، في
جبل أصم^(٩)

هكذا صار حال فردوس الأطهار أمامه وقديسي
البرية في نظره !!

وإزاء هذا التفكير الملتوي توارت قدرته الحقيقية
تاركة إياه بلا حول ولا قوة، ودخله القلق والاضطراب
والهم. وفترت محبته للدير والآباء الرهبان وكل ما هو
طاهر، وكل ذلك تم في وقت قليل وأيام معدودة.
وها قد انفصل عن الله وأعطى الكل جانبًا، وشك أبونا
توما في مواعيد الله واختياره لطريقه والمعونة الإلهية.

(٩) أحيانًا يكون الفساد الذي يتخيله الإنسان في سواه، هو نظره

السوداء التي تعكس حقيقة نفسه المريضة.

وأصبح أبونا توما أجوفًا، وحديثه جافًا وبلا منفعة، حتى عند الزوار لأنه قد تاه منه نبع الحياة في زحام محبته للعالم والحياة الحاضرة، ومن أين له ليعطي هذا المسكين بينما هو قد فقد كل شيء؟! وكيف يقول لمحتاج الله معك والله ليس معه هو؟! كيف يعطي الله وهو لا يمتلكه!!؟

ألا تعلم يا أبي توما إننا نمتلك الله بقدر ما ندعه أن يمتلكنا!!؟ وأين أنت من الله الآن؟! والكتاب يقول أيضًا ”الإنسان الصالح من الكثر الصالح في القلب يخرج الصالحات..“ (مت ١٢: ٣٥)

وباختصار شديد انفض من حوله الجميع وأصبح وحيدًا، وبسرعة شديدة لم يتركه الشيطان للوحدة لئلا يصحو ويستيقظ من غفلته، ويرجع لصوابه ويعود لنفسه، وقال لا بد من خلق عالم جديد له. لنكمل معه مسيرة الضياع وخطة السقوط للنهاية وجاء إليه، لماذا أنت

وحدك ههنا؟ وكيف ستعيش وحيداً والى متى هذه
الغربة..؟! كفى وحدة أيها الغريب.

وها قد التف حوله بأوتار الفلسطينيين.. أصدقاء
دليلة. فهوى برأسه تحت يد لا ترحم فخارت قواه مع
آخر علامة نذر لله.. (قض ١٦: ٤)

ولأول مرة من عشرات السنين يرى أبونا توما
وجهه في المرأة، وكأنه يرى شخصاً غريباً لا يعرفه من قبل،
ولكنه فرح وتهلل وابتسم وكأنه وجد ضالته في صورته..
واستأنس بغريب يمتلكه !!

آه.. مازلت شاباً، وسيماً، يافعاً، قوي البنية..
فعلاً زهرة يانعة وسط نبات الصبار بين القبور.. هكذا
قال عن نفسه. (١٠)

آه يا أبي... بأي عين وبأي بصيرة رأيت الآباء
كالصبار، والدير بقلاليه كقبور الموتى ولحود المنتقلين؟!!

(١٠) الفراغ قاتل يا أبي فقد جعل داود يخطئ (٢صم ١١ : ٢ - ٤)

ودينة ابنة يعقوب تتنجس (تك ٣٤ : ١ - ٢)

سامحك الله يا أبي توما. وقال أيضًا إلى متى سأظل بين روث الدواجن^(١١) وقلق الديك وصياحه ؟

لم أسترح ليلة كاملة بسببه.. لا أنكر أنه أيقظني كثيرًا للصلاة في البداية، ولكن الآن الوضع فاق الحد، والأمر لا يحتمل، أنا أستحق أكثر من ذلك. كيف وافقت وقبلت من الأول على أن أسكن في منطقة كهذه، يستنكف معدم فقير على السكنى فيها والرضا بها ؟! عمومًا لا يهم.. ولكن أيضًا لماذا أموت وأدفن بالحياة مادامت نسمة القدير فيّ ؟! وكأنه يقول ما قاله (الغريب) في رواية كامو.. وقتي القليل لا أريد أن أضيعه مع الله.. ولماذا لا أكون زوجًا صالحًا في العالم ؟! وما الجريمة ؟!

وهل الزواج خطية ؟! فلو كان كذلك ما خلق الله حواء لآدم (تك ٢: ٢٢) ولم يقل الكتاب.. وبارك الله نوحًا

(١١) نذكر القارئ أنه في بداية القصة جاءت قلايته بجوار مزرعة الدواجن بالدير، وفرح ولم يعلق وقتئذ !!

وبنيه وقال لهم اثمروا واكثروا واملئوا الأرض. (تك ٩: ١) وقد
بارك أيضاً عرس قانا الجليل (يو ٢: ١-٨) وهل أخطأ أبائنا
الأولون إبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف وها كلهم
قديسون أطهار ؟

آه.. تكلم يا أبي توما تصمت وماذا في جعبتك
أيضاً، أخرج من كنزك البالي الكثير والكثير، ليس بمجديد
أن يتكلم على فمك عدو الخير لأنه يعرف الكتاب جيداً
وكل ما هو مكتوب (مت ٤: ١٠)

أنظر يا أبي توما، فعلا لا توجد جريمة في الزواج،
ولا خطية في هذا السر المقدس. وكل ما تفوهت به
مكتوب ولا نقدر أن ننكر منه شيئاً، ولكن أيضاً يوجد
✠ كسر نذر بالنسبة لك واستهانة بكلام الله
وقول الكتاب ” أن لا تنذر خير من أن تنذر ولا تفي “
(جا ٥ : ٢٨)

✠ يوجد أيضًا خيانة عهد مع الله الذي عاهدته
أن تحيا له وبه تعيش، وعلى قوانين الرهينة تمضي وعلى
أقوال الآباء تسير.

✠ يوجد أيضًا استهتار وضعف، لا قوة عدو أو
سلطان إبليس، ولا أيضًا شهامة حية أو قدرة محتال.
✠ ألم تنم ^(١٢) أمام مذبح الله وهيكله المقدس
لتموت، فماذا حدث لك ؟!

✠ ويوجد كذلك هزيمة دون داعٍ، وحفرة في
طريق روحي، صنعتها يداك وقت عبثك المريض وتحوالك
في دروب سقيمة وطرق غير مستقيمة، وحفرتك هذه ربما
يجزع منها المبتدئون وبادئو الجهاد، وها قد أعثرتنا جميعًا
نحن الضعفاء المترجين مراحم الله ومعونته للطريق..

✠ ألم تتعهد أمام آباء الدير وقديسي البرية في أن
تحيا راهبًا حتى النهاية ؟

(١٢) يوم سيامة الراهب يصلى عليه صلاة الموت وهو نائم (في صحو)
أمام الهيكل.

✠ وكان المفروض أيضاً ” كل مقدمة الكاهن

تتحرق بكمالها“ كقول الكتاب (لا:٢٣)

وأنت لم تفعل ذلك ولم تنتظر بل خارت قواك من كثرة التنقية، وجزعت سريعاً من التصفية ومن يد الله، الموضوع عندك بكماله ولا لوم على أحد يا أبي، ولا خطأ في اختيارك للطريق، ولا شبهة في أديرة القديسين وأماكن الآباء.. ولكن أين الآذان التي للسمع لأبينا توما ؟ فلم يعرني أي اهتمام، ولم ينصت لكلمة واحدة من هذا، وأخذ مسترسلاً حديثه، وفي إصرار شديد أن يكمل خطأه، وعاد ليقول:

لكن ماذا لو عرف الناس إني حانث (١٣) بعهدي مع الله أو كنت راهباً قبلاً؟! وأشار إلى ملابسه وظلال

(١٣) كلمة حانث تعني كاسر نذره أو خائن عهده في أن يحيا بتولاً، وقد أصبح تقييمه للأمور لا يهمه إلا ماذا يقول الناس عنه، وهذا يتناسب مع حالته الروحية وخروجه عن دائرة الوصية.

ذي الحداد الأسود الذي أرتديه يطاردني في كل زمان
ومكان... نعم لا أقدر.

ونزل بخياله إلى عالم الخطية، وأطلق لنفسه عنان
الشهوة، وصال وجال وفكر بجدية في كيفية الوقوع في
الخطية، وتدارس السبيل في أن يعيش على المحرم، ويموت
دون أن يعلم بقصته أحد، ولا يعرف إنسان من هو هذا
الضال الجديد وجاني خرنوب اليوم !

وها قد مد يده على شجرة المعرفة ^(١٤) ليأكل
الخرنوب مع الخنازير، ويحيا مع العبيد في كورة نائية لا
تعرف الله، وقد خضع للحية وخالف مدبره وطلب الموت
(تك ٧: ٢)

^(١٤) شجرة المعرفة ليست هي شجرة الخرنوب ولكنها بعينها طريق
الدخول إلى حظيرة الخنازير وقرى التيه !!

وأسر لأينا غبريال بذلك ^(١٥) - صديقه الذي
 كان يأوي إليه ويأنس به دائماً - والذي حالما سمع ذلك
 ذرى التراب على رأسه، ونتف شعر لحيته غير مصدق
 عينيه، ولم يوافق على ما أملت عليه أذناه، وبكى وناح
 وقال:.. آه يا سيدي الرب كم أود أن أقنع نفسي بأنني
 في حلم مزعج أو خيال كاذب.

وهل الذي يكلمني هو فعلاً أبونا توما؟!

يا رب أنظر... هذا مستحيل!!

تكلم يا أبي، تكلم ولا تصمت، أخبرني ماذا

أصابك؟

فصمت ولم يجبني بشيء...ء

وافترشنا التراب وجلسنا على الرماد، في كرب

شديد وحزن لا يوصف، وها قد صار الحصى كرسياً

^(١٥) لا يفوتني أن أشكره وأتنبأ بشيء إيجابي له في المستقبل القريب،
 وسط كم السيل الجارف من التويخ واللوم، لأمانته في أن يروي لصديقه
 حالته وما ينويه لنفسه من خطر وخطية.

للأجساد الحائدة عن الله. لأن الرمال رفضت مجلسنا
ورأت أننا أقل طهارة من طين الأرض !!

وها قد انحنت الرؤوس منخفضة، والهجمات
منكسرة إلى التراب، لتؤكد أن الإنسان دون الله لا شيء
أبدًا بل ويعود إلى أصله (تك ٣: ١٩)

وصار صمت رهيب، لا أعلم كم من الوقت
مضى وأي ساعات قد مرت، غير أن نبض قلبي كسر
هذا السكون وهول المفاجأة بصراخ، وإن كنت لم أعره
أي اهتمام، لأنني بحاستي علمت ماذا يريد وقتئذ. يريد
أن يطلب في الصلاة شيئًا، وهذا على غير العادة،
ومخالف للمألوف، لأنني طوال أيامي الرهبانية وسني
حياتي لم تكن لي طلبة واحدة، بل كل تنهدات قلبي
وتعبيرات لساني هي شكر دائم على ما أنا فيه، لأنه
بصدق كثير وكثير جدًا وأنا لا أستحق منه شيئًا، وماذا
أطلب وأنت لم تدعني معوزًا شيئًا ؟!

ولكن بعد إلحاح شديد أرهفت السمع إلى داخلي، فوجدت صراخ القلب فعلاً كما توقعت. صلاة وطلبة لأجل أخي أيننا توما، وفي خجل وحياء شديد اشترك اللسان لأول مرة، هازماً إرادتي وقواعد صلاتي المتبعة منذ زمن، ليتوسل إليك يا رب بطلبة هذه المرة، هذه المرة فقط. في أن ترفع عن أيننا توما هذه الأفكار الشريرة، وأنا أقول لك ارفع يا سيدي هذا الفكر الغريب عنه وضعه عليّ أنا. فأنت تعلم يا رب إنني بلا فائدة للدير واخوتي الرهبان، وأنا أعلم جيداً إنك إله رؤوف ورحوم، ولا بد وإنك ستخلصني يوماً، لأنك تعرف من أنا الضعيف، وعبدك لا يعرف سواك ويعني تماماً من أنت أيضاً، يا إله الضعفاء وناصر المتوكلين عليه.

يا سيدي أنت تعرف جيداً أن أبانا توما كان حاراً في الروح جداً، وأكثرنا يقظة، فلم تحتمله الشياطين، وأهاجت عليه الأفكار الشريرة، وفتحت أمامه الطرق الملتوية على مصراعيها.. لعل أبواب الجحيم تبتلعه..

وليس عن كسل وحياة فاترة وجهل بالطريق. فأنظر يا رب إلى كل هذا بعين الرأفة والرحمة في مرة واحدة.

والتفت إلى أيننا توما وقال له: ما هذا يا أبي ولماذا ذهبت إلى أرض الأعداء بإرادتك ؟

لن أعظك يا أبي، ولن أكون لك مرشدًا، لأني أعرف تمامًا من أنت ومن أنا الضعيف.. فضعفك عارض يا أبي والكل يعلم ذلك، وإن كان غير متوقع.

آه يا أبانا الطاهر... وانتفض أبونا توما، وقال لا تقل إني هكذا، لأن الكلمة حين تلمس مشاعري أشعر بغربي، وأحس بأني عن هذا أنا بعيد، نعم بعيدًا جدًا. بصدق أن بيني وبين هذه الكلمة (طاهر) مسافة كبيرة وهي كل خطاياي وأفكاري الشريرة ومدة التهاون. فأنا صاحب خيال جامح فلم تنفعني المشورة، ولا أصلحني الإرشاد. فكم تعب معي أبي زوسيمًا. فربما أنا العليل الذي لا يحب الدواء خوفًا من الشفاء، وأصبح الداء هو علاجي.

فلا تعظني يا أبي، ولا تتعب في غرس قد جف
أصله، لأنه بُعد كثيرًا عن مجاري المياه، ومنذ زمن، وحفر
لنفسه آبارًا مشققة. فلم تسق الجذور ولا ارتوت
الأغصان، فمن أين تأتي بثمار؟!!!

فأنا قد عقدتُ النية على حياة الشر، بحكم
ضعفي وعيشة الغربة عنكم وأنا بينكم.. بصدق قد
أصبحتُ عاجزًا تمامًا عن القيام من سقطتي مرة أخرى،
وما هي قوتي حتى أحتمل؟!!

والآن قد أتت الساعة، ليعلم الكل في الدير بأن
حظي من الحياة مع الله بات مستحيلًا... فعلاً مستحيلًا
جدًا.

فكيف يحيا يهوذا وسط التلاميذ؟! وما هو قد
أخذ الثمن، وباع المخلص منذ زمن بعيد، وحبل الإعدام
على بعد أمتار، ولم يتبق من الوقت شيء!!!
فأرجوك يا أبي اتركني لحال سبيلي، فلقد أعيتني
الأفكار، وما قد قويت عليَّ الحية جدًا.

فأجاب الراهب غبريال وقال:

وهل انخرمت مراحم الله أمام أفكارك ؟

ألا تعلم يا أبي أن الله قد أهلك يهوذا الخائن على ما فعل، ليس لأنه قد أسلمه لليهود، لا يا أبي، بل لأنه لم يقدم توبة ولا ندم، وما تنويه أنت الآن هو صورة أخرى من الانتحار؛ لأن التماذي في الخطية هو موت!!
(رو٦: ٢٣)

ولمن تترك المحراث وأرضك المخصبة (القلاية)
وزرعك النامي لتقفرو وتجذب ؟!
أفتأخذ أعضاء المسيح وتجعلها أعضاء زانية ؟
(أكو٦: ١٥).

ولماذا تتلف تعب رهبتك وبتوليتك يا أبي ؟!!!
اسمع يا أبي توما ما قد قلته لي في بداية حياتي
بالدير، ويوم أن جئت للرهبنة، إن الحروب للراهب ظاهرة
صحية، وعلامة جهاد، وصحة طريق، وترمومتر قياس

نمو، فكيف الآن تعتبر الجهاد هزيمة؟ وتعد الحروب
انكسار؟ وتترك أرض المعركة وساحة القتال ؟ وإلى أين؟!!

✠ وهل في العالم راحة وفي الخطية نياح ؟

✠ ألا تعلم أن الحرب للرب..؟

✠ وما نحن إلا جنود قد وضعنا في أرض المعركة للمكافأة

!!!

فق يا أبي. اصح يا راهب، وعد إلى طقسك،
وضع أمامك نهاية الخطاة المرعبة، وأرجع إلى حياتك
الأولى، وما اخترته لنفسك قبلاً - العفة والفقر والطاعة
.-

وأجاب الأب توما: إن كلامك يا أبي هو المرتقى
الصعب، وما أسهل وصف المثل بالكلام، والقيم
بالأحاديث، ولكن التنفيذ صعب وأنا على الفعل لا
أقدر.

فقال الأب غبريال: لا أحد وحده يقدر على شيء^(١٦) من هذا يا أبي. فضع يدك كالأول في يد سيدك ليعينك، ليس عليك إلا انك تمد يدك، وهو يكمل كل عمل صالح.

وهذا هو كل عمل الإنسان أن يمد يده فقط، وهل يستطيع أن يفعل أكثر من هذا في حضور المسيح؟ وأي شيء تملك أكثر من ذلك؟

حتى أن اليد اليابسة - بالخطية - يحركها المسيح لتمتد إليه. فنحن به نحيا ونتحرك ونوجد (١٧٤: ٢٨)

ولو لم تقدر على أن تمد يدك. كن بالنية موافقاً على إنها تمتد للسيد المسيح، ولا عليك أكثر من ذلك، والذي أعطى القلب النية الحسنة يعطي اليد الحركة نحوه، وماذا تنتظر أكثر يا أبي؟

(١٦) بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً (يو ١٥: ٥).

فقال أبونا توما: كلامك مريح جدًا يا أبي.. وبل بالأحرى صحيحًا جدًا. لكن أنا إنسان حقير وذنس، وينبغي أن يتطهر الدير مني والبرية من أمثالي، لأني صرت حقل تجارب للشياطين بإرادتي، ومعمل للشر بهوأي... وهيئي بسواد قلبي وملابسي هي الآن حداد على نفسي الهالكة.. كنت أتمنى لو أنني بقيت في قريتي المتواضعة، ولم أغامر قط بالانضمام إلى زمرة الأطهار ومجمع القديسين وسكان البرية.

سامحني يا أبي فاني ضعيف جدًا، وأصبحت عثرة للجميع، والويل لي.. وبكى...

ونظر الأب غبريال إلى السماء يا رب لماذا حجت وجهك في أزمنة الضيق ؟

ولماذا التحفت بالغمام وتواريت ؟

فإنه قد ترك كل شيء وتبعك. فهل هذا جزاءه وأجرة كده، ولماذا تتركه الآن وحده ؟

في لوم ألقى اللوم عليك جدًا يا سيدي يسوع
المسيح. أليس هو ابنك وقد أتيت تطلب وتخلص ما قد
هلك ؟ (لو ١٩: ١٠)

ويأتي صوت السماء ”لماذا تلقي اللوم عليّ؟
بينما أنا قد اعطيته اسم الملائكة ورتبتهم، وها أمامك قد
بدد الكل واستهان بالجميع !!“ فلم يجب بشيء.
وأخذ الأب توما يتسلل تحت جناح الظلام؛
ليقبل كل شيء في الدير وهو يرتعد - وإن كان كرهًا
وليس برضاه - طاعة لأبينا غبريال وحسب مشورته الذي
قال ربما تتحرك مشاعره الأولى، وأحاسيسه المقدسة،
بالأماكن التي عشقها قبلاً، وأحبها الأول.. وكأني به
أقول لولا حروب الشهوة الخاطئة، وثورة الغريزة،
واستسلامي، لبقيت هذا للنهاية، ولن أغادر الدير إلى
الموت - ولكن ماذا يفعل المسكين بينما القتال هذا
مقداره والحروب في أوجها ؟ وانسحب...!

ووصل إلى الكنيسة وانهارت قواه، وأخذ يلطم وجهه ويضع الرمال على رأسه وفمه وعينه. حتى إنه لم ير أمامه شيئاً، فلم يعلم هل كف بصره؟ أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فحجبت عنه كل شيء حتى نفسه؟ وكأنه يقول للشيطان ها قد تركت لك كل شيء عدا ثوبي البالي. فلماذا تضطهدني؟

ومن أين لك هذه القوة التي حطمتني؟!
آه يا أبي ليس له قوة، ولا سلطان، ولكن أنت الذي أعطيته سلاحك فقتلك به. أسلمت له خوذة الخلاص فشدخ رأسك، ومنحته ترس الإيمان فشككك في طريقك..!!

وها قد ودع الكنيسة بيت الملائكة، ومكانه المفضل، الذي كان يقف يناجي الله فيه، وأبونا غبريال معه في كل شيء حسب الوعد والاتفاق، بأنه ينزل معه إلى العالم لو كان أراداه !

بعد موافقة الآباء الشيوخ الذين قالوا:

”مادام ذرى التراب على رأسه فلا تخف، اذهب معه لأنه لم يمت بعد لكنه نائم!“

وسوف ينظر الله إلى تعبك ولا يدعه يقع في الخطية... واثنان خير من واحد.. (جا٤:٩)

الرب يجعلك قارب نجاة يا ولدي.

ورفع الأب غبريال قلبه إلى الله ليطلب معونة، وقال: أيها السيد الرب دعني أدخل أنا غير المؤهل وغير المستحق، وأخوض هذه التجربة الممّرة. مع أخي المسكين...

أنقذنا يا رب من مكايد إبليس، وفكر الحية، ودهاء الشيطان. ولكن. هل ينجو هو أيضًا من فخاخ إبليس؟

فأزعجته الأفكار ببعض الأدلة الملتوية، وأنصاف الحقائق.. إلى أين أيها الأب غبريال أنت ذاهب؟ وما لك وهذا الخاطيء؟

... فهو لشهواته، وأنت لديرك وطهارتك. ألم

يقل بطرس للجارية عن الرب يسوع: يا امرأة إني لا أعرفه! (لو ٢٢: ٥٧)

فلماذا تتصلف أنت وتنسب لنفسك حماقة ؟

والى متى تصر على إلقاء البذار على الصخرة؟ وماذا تجني من حسك الصخور وشوك الأحجار؟ ألا تعلم أن الرب في أي وقت يستطيع أن يمسك السوط، ويطرد الذين يبيعون في الهيكل، ويدنسون المقدس ؟!

أشير عليك والأفضل أن تتركه، ونفض عن نفسه الأفكار صارخًا. هو أخي وسوف أضع نفسي لأجله (١٧) فماذا عن قول الكتاب اسندوا الضعفاء (اتس ٥: ٤)

... ومضى الليل إلا قليلاً، وانسحبا من بوابة

الدير الخلفية، حيث النزول إلى الريف والذهاب إلى القرى والنظر إلى الورا، والرجوع إلى العالم...

(١٧) لا يوجد شيء يعزي الرجل الحزين، كما إذ رأى أحدًا حزينًا معه في شدته.. (القديس أغسطينوس)

والتفت أبونا توما إلى أطلال الدير المقدسة في
شخص أيينا غبريال... وبكى بكاء مرًا... وعقله يتخبط
باهواجس كما يتخبط الغريق في بحر خضم لا شاطئ
له..

(٣)

وخرج أبونا توما من الدير صفر القلب واليدين،
وهكذا اختفى شمس البر من حياته وتوارى النور الحقيقي
وراء أفكار الخطية وميول الشر، وحيدان الجسد.
وفي ألم أمر الأب المسئول أحد الآباء، بأن يمر
على كل راهب في قلايته، ويطلب من الله في صلاة
خاصة وبلجاجة ودموع، من أجل أيينا توما، لأنه في
تعب شديد ولا أكثر، إنه في ألم مرير ولا زيادة، وقال:
”أيها السيد الرب ليتك تسمع صلاة عبيدك، وتنصت
كما في القديم، وتفتح أبواب سجنه وتفك
قيوده“ (٨: ١٢٤)

وصار صراخ في الدير كله.. الليل بأكمله.. لم
يُسمع من قبل، وكأن دموع عيون البرية وكل الإسقيط
كانت مخزونة من أجل تلك الساعة، والراهب توما.

ولا يفوتني مشهد مدبره الذي جلس أمام قلايته،
وقال ارحم شيخوختي يا رب. لا تدعني أنزل إلى القبر.
مر النفس بسببه.

آه يا ولدي ليتني مت، ولم أرك حائثًا وكاسرًا
نذكرك أو ناقضًا عهدك، وأخذ يقرع صدره، أذكر يا رب
تعبه، وسهره وجهاده، ولا تتركه يسقط في الخطية، وابتدأ
يسرد في فضائله وأعماله المملوءة بالخير
كطابيثا. (أع ٩: ٣٧)

... وها هي عينها الطريق التي كاد أن ينهشها
كالأيل، مسرعًا إلى الله والبرية، من عشرين عامًا، حيث
كان الهدوء والاطمئنان وسلام القلب، وها الآن يعود
مطاطئ الرأس، خاوٍ من كل بر، وخالٍ من كل فضيلة
وأبي عمل صالح.

وابتلعهما جوف الليل بلا رحمة. فأخذا يجدان في
السير وسط زجرة الرياح، وأصوات قهقهة، ولا يوجد
أحد...

”الحقوه وأمسكوه لأنه بلا منقذ.“ (مزا ٧: ١١)

... فينظر إلى النجوم، فيخيل له إنها عيون الله

ناظرة إليه نظرات الوعيد والتهديد.

فيقع فوق الصخور، وتسيل دماؤه فلا يحس ولا
يتحسس. وكأنه طريدًا مخمورًا يركض نحو الموت ولا يعلم.
أو قل فراشة أسرع لمصباح الليل لتموت، وأمام هذا
المنظر الرهيب. ابتداء الليل يزرف ندى قلبه دموعًا حزنًا
على هذا الراهب المسكين، وما قد هوى إليه بلا سبب.
وكلما اقتربا من القرية زادت صلاة الأب غبريال
للمجاعة.

يا رب أنت تعلم إننا تراب ورماد، فلماذا تتركنا
للرياح تذرنا ؟

أصبب ماء الحياة علينا - كتراب - فنصير طينا.
وضعنا في بوتقتك - مع الرأفة - لنصبح آنية خزفية
للكرامة، ويكون الفضل لك في كل شيء. وبكي كثيرًا

(وكيف لا ينوح المسكين وهو يرى أخاه ينحدر إلى الهاوية بلا هوادة، وينزل إلى الجحيم في خطى واسعة؟) وأصبحا الآن على مشارف القرية، أو شفا الهوة، وإن جاز التعبير قرب الخطية الرابضة هناك.

ومرت ساعات أطول من الدهر، وأشد هولاً من الموت، وفجأة وقف الأب توما ولم يتحرك، وأرهف السمع وأرسل آذانه إلى مصدر صوت قد أتى من بعيد، فتزلزل كيانه واضطربت نفسه وانزعجت روحه.

صوت صياح ديك. ما هذا الذي أسمعُه؟!!

وهل هذا إعلان عن ميعاد ناقوس التسبحة،

وصلاة نصف الليل، أو قرب الريف والخطية؟!!

هل هو ديك مزرعة الدير. أم ديك القرية؟

ولم يقل أكثر من ذلك...

وانفجرت ينابيع الخير، وكأن حياته الأولى ترجوه
للمرة الأخيرة. أعطنا هذه الفرصة فقط، وقف أنت لترى
خلاص الرب. (١٨)

وهنا تحركت التسبحة، والألحان أسرع، لتشدو
في آذان من هو نائم في مؤخرة السفينة وقارب النجاة،
لينقذ مرئها الشجي، وإلى متى تصمت بينما هو قد
أصبح في الهزيع الأخير من الهزيع الرابع، والأمواج عاتية
والمسيح قريب. (مر ٤: ٣٨)

انكسرت قارورة الطيب المحفوظة لتلك اللحظة،
لتمحو من الأنف رائحة كُرات مصر وثوم فرعون، وتزيل
طين ووسخ رهب (١٩)

تحركت نار ولهب المطبخ لتأكل كل فكر رديء،
وأي شر، وتأتي أيضاً على كل اليابس !!

(١٨) وكأن حياته الأولى تريد أن تقول: هل أنت متذكر للآن ميعاد
الصلاة؟ ومالك والصلاة بينما أنت ذاهب للخطية؟.. لا أنت كلك خير
ومرضك عارض ! انتظر فقط قليلاً !!

(١٩) رهب أي مصر. (مزمور ٨٦ بالأجبية).

تقدم القربان المقدس لينقذ مَنْ تعب في صنعه
مرارًا وسهر من أجله كثيرًا !!

تحركت أمعاء الآباء المملوءة من تعب وجهده
وعمله، تصرخ لتشفع له، وتنادي مَنْ بارك في الخمس
خبزات؛ ليشدد من خار في الطريق، ويعطيه ولو من
الفتات الساقط ليعيش ولا يموت !!

تجمع عرق جهاد عشرين عامًا، وجرى إلى
جشيماني حيث مكان قطرات عرق المخلص، ونزل
كهدير على صخور أورشليم فذابت، وكأنه يقول، وهل
صاحبي مات، فبكي يسوع.... !!!

صرخت الكنيسة... حبيبي خرج فأنت عليه
أحشائي... أحلفكن يا بنات أورشليم، إن وجدتن حبيبي
أخبرنه بأني مريضة حبًا (نش ٥: ٤)

فتحت قلايته المباركة جميع نوافذها على
مصراعيتها؛ لترسل صلواته إلى عنان السماء، وسهره إلى
فوق. تطلب رحمة لصاحبها وعودة ورجوع !

انفجر زق دموعه القديم، وإلى متى الدموع في الزق تبقى،
بينما صاحبها في ضيق وألم وهلاك، فجأة قد بغته.

تقدم الحروف كعادته؛ لينقذ اسحق الجديد في
الوقت المناسب !

صرخ الوحي ها أنا قد ذكرتُ لكِ غيرة صباك،
محبة خطبتك، ذهابك ورائي في البرية في أرض غير
مزروعة (أر ٢: ٢)

صاح ديك المزرعة بالدير، ولم يخرج أبونا كالعادة
في الميعاد للصلاة، فأسرع إلى أعلى رابية وأخذ يصيح
أكثر كثيرًا؛ لكي ينظر المسيح من السماء إلى بطرس
الجديد؛ لينقذه من يد الجارية وبرودة الحياة !!

وبالجملة فقد ظهر الآن وبوضوح بركة محصول
غلات العام السادس، وفي زمن الجوع ووقت العوز
والحاجة (لا ٢٥ : ٢١) (٢٠) آه.. فلا نفشل في عمل

(٢٠) إن طايثا قامت بصلوات القديس بطرس الرسول وشفاعة أعمالها

المملوءة خيرًا. (القديس يوحنا ذهبي الفم)

الخير لأننا سنحصد في وقته إن كنا لا نكل (غل ٦: ٩) ولا
عجب.. فلم ترق أنفه لرائحة البصل والثوم، والكرات
(عد ١١ : ٥) وأخذ يتهامس مع نفسه ويتساءل :
هل أترك الرب والمن والسلوى لأجل البصل
والثوم؟!!

هل نسيت الطين والتسخير والطوب اللبن
والقش؟!!

هل أعود حيث فرعون والاستعباد؟! (٢١)
الرب عبر بي من بحر العالم وشهواته بيد قوية
وذراع رفيعة... فهل أعود في ضعف وذل وهوان؟!
لماذا أرجع من الميناء ؟ وإن لم أجد خلاصي
هنا.. فهل في البحر نجاة؟!!

(٢١) من الأسماء التي تطلق على الشيطان (فرعون العقلي)

فلو أطعت شهواتي لصرت بحق عبدًا لإبليس،
وابنًا لجهنم... بصدق.. وقد ملت نفسي بنات حث
(٢٢) (تك ٣٧: ٤٦)

وأفكار الخطية، وصوت الشر، ونداء العالم...
ونظر إليه أبونا غبريال نظرة رثاء.. مسكين أبونا
توما كادت الأفكار أن تقتله، والشهوة المرة جعلته
يهزي... يا رب أرحم، يا رب خذ نفسي عوضًا عن مرارة
نفسه.. يا رب اجعل جسده هيكلاً مقدسًا لك، لا
سجنًا له وقبرًا.

وأفاق أبونا توما من همساته المقدسة، وفي آذانه
صوت ديك - القرية - ولكن كان يسمعه هذه المرة
بأذان بطرس الرسول، فبكى.. بكاءً مرًا وندم.. !!
وقال يا أبي.. أليس ميعاد التسبحة الآن؟!

(٢٢) سأعتبر الأفكار الشهوانية " بنات حث " (تك ٣٥، ٢٦: ٣٤)

وتعجب أبونا غبريال.. وربما لم يصدق.. أشكرك
يا رب، تساؤل يبشر بالخير..

نعم يا أبي.. الليل كاد أن ينقشع. فقال آه..
مسكين أبونا ديسقورس. يطرق باب قلائتي ليصطحبني
إلى الكنيسة فلا يجدني..

آه يا صديق.. لا تصح أيها الديك فأنا غير
موجود بالدير، ولا في القلاية.. كُف عن الصياح وابدأ في
البكاء والنواح والعيول.. صاحبك في طريق الموت ذاهب،
وإلى أرض سدوم يسرع.

الآباء إلى الكنيسة، بينما أنا إلى الدنس أسرع.. فيا
لشقاوتي، والتفت حوله وقال وما هذا وأين أنا؟ وما هذه
الطريق المؤدية للموت التي أنا سائر فيها؟!

الويل لي؛ لأني أخطأت أكثر من جميع مَنْ هم
على الأرض.

يا أبي.. وهَبْ أُنِي وقعت في دنس الخطيئة،
وتلذذت بالشر زماناً يسيراً.. فهل ما هو دنيء يجعلني
أفضل حالاً، وما هو رديء يصيرني أحسن؟!
بيد لا..! بل من شقاء لشقاء وتعاسة ولا أكثر.
وفرِح أبونا غبريال ووقع على قدميه، وأخذ يقبله
كثيراً..

الرب هو الله.. الرب هو الله (٢٣) وكأن ذبيحته
قُبِلَتْ، ومات كل أنبياء البعل، ودفن إبليس على جبل
الكرمل، وعاد إيليا منتصراً من جديد (١مل ٢٨: ٣٩)
نعم يا رب.. فالذي تذوق حلاوة الطهارة معك،
يستحيل عليه أن يتخلى عنها من أجل لذة فكر طائش
أو رغبة دنسة، وشهوة وقتية.. شكراً لله..

ولم ينتظر أبونا غبريال أكثر، هيا يا أخي نترك
وادي الدموع لنعود إلى جبل السلام، وركضنا وأسلمنا

(٢٣) إن الإله الذي لبي النداء فوق جبل الكرمل قديماً هو هو أمس واليوم
وإلى الأبد للذين يطلبونه بكل قلوبهم...

أرجلهما للريح، وكأن أبانا توما كعصفور طليق لم يعتد
حياة الاقفاص...

وعادا من حيث أتيا.. عادا إلى البرية، ودخلا الدير،
ودقت أجراس الدير لتشارك السماء فرح رجوعه.. هوذا
آت طافراً على الجبال قافراً على التلال. (نش ٢: ٨)

وفرح الآباء ووقعوا على عنقه وقبلوه، ولا سيما
مدبره الذي نسي شيخوخته وثقل السنين، وجرى كطفل
وأخذ يقبله كثيراً، ويصرخ :

”رده يا رب كالقديم، وجدد أيامه“

وسجد أبونا توما تحت أقدام مدبره: أخطأت يا
أبي سامحني.. وقد جلبتُ لك التعب ومرارة النفس
بتهاوني وعدم طاعتي، وكاد يذوب خجلاً وقال:

هل يا أبي أنتم فعلاً فرحون برجوعي؟

وهل الله سيقبلني مرة أخرى بعد كل هذا التفكير
في الشر. بل وإني قد اتخذت خطوات عملية نحو التنفيذ
والسقوط في الخطية ؟

أنت تعلم يا ابني أن الله من أجل الخطاة قد أتى،
من أجلك قد مات (رو ٥ : ٦)

اسمع يا ولدي، إن الله يعتبر كل خطايا الإنسان
بجهل قد فعل، مهما كان علمه ومعرفته وثقافته، لكن
بشرط واحد فقط هو ان يقدم توبة...

عجيب حقًا هذا الإله، وهل هذا صحيح يا أبي؟
وكيف؟!

كيف يعتبرني الله جاهلاً بينما أنا كثيرًا ما جلست
أخطئ لكيفية إتمام الخطية، وتدبير السقوط بفهم وعقل
ووعي؟

اسمع يا ولدي. طالما أن الإنسان رجع إلى الله
نادمًا وتائبًا من كل قلبه. توبة حقيقية، فلا ينظر الله له
إلى الوراء ولا يفتش له في الماضي، ولا يبحث في القديم،
وفي هذا يقول الكتاب: لأني أكون صفوحًا عن آثامهم،
ولا أذكر خطاياهم وتعدياتهم فيما بعد. (عب ٨: ١٢)
.. وباختصار يا ولدي

الله يرى أن الإنسان العاقل لا يخطئ، والجاهل لا يتوب !! وهذا يعني أن كل خطايا الإنسان يعتبرها الله بجهل قد فعل. وفي هذا يقول الكتاب: ”فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان ان يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل“ (أع ١٧: ٣٠) وكلمة متغاضياً معناها أنه يغمض عينيه ويتغافل عما بدر في سني الحماقة وأزمنة الجهل. وأنت لم تفعل الخطية، وإن كنت فكرت بجهل وأيضاً بجدية.

إن الابن الضال في عودته توقع العقوبة من أبيه، ولكن الأب ليس عنده عقاب بل قبلات فمه (نش ١: ٢) ... ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية (١ يو ١: ٧)

... لا يحم غضبك علي يا أبي، طمئني لكي يستريح قلبي، وتهداً نفسي، هذا من جهة الله. ولكن كيف أعرف أنا أن الله قد قبل توبتي ؟ باختصار يا ولدي

إن توبتك تؤكد قبول الله لتوبتك ! لماذا ؟

سأوضح لك...

إن التوبة هي عمل الله في الإنسان، فكيف يرفض

الله نفسه ويترك عمل يديه؟!!

سأشرح لك أكثر

إن الإنسان ليس فيه شيء صالح بالمرة، بل

الأكثر من ذلك أنه تراب ورماد. (تك ١٨ : ٢٧)

وأما التوبة فهي عمل صلاح، وفعل خير

واستقامة حياة،

إذا التوبة هي عمل الله معك كما يقول الكتاب .

لأن الله هو العامل فيكم..... (في ٢: ١٣)

وإن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة

(٢بط ١: ٣)

ويصرخ أرميا النبي أيضاً . توبني فأتوب

(أر ٣١: ١٨)

إذا مستحيل دون الله أن تستطيع أنت أن تقدم

توبة (٢٤)

أنت تساوي الخطية فقط. ”لأن الإنسان شرير

منذ حدثته“ (تك ٨ : ٢٢)

ولكن بالتوبة تساوي ”اللابس المسيح“

لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم

المسيح (غل ٣: ٢٧) والتوبة هي معمودية الخطاة !!!

ثم قل لي يا ولدي وما هو الطريق الآخر للرجوع

إلى الله سوى التوبة !!؟

ثم تنهد قائلاً قد تذكرت قول الوحي أيضاً

”أرجعوا إليّ أرجع إليكم“ (مل ٣: ٧) وأنت قد رجعت

نادماً، والرب أمين في وعوده وصادق في عهوده،

فرجوعك يؤكد رجوع الله إليك، ورجوع الله معناه

قبولك!!

(٢٤) لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً (يو ١٥: ٥)

ولكن من الآن يا ولدي

ثق أن لا تؤالف سوى الله وملائكته، وتجنب
الناس، فإن الأحاديث العالمية تعوق كثيرًا، وإن كانت
عن نية سليمة.

وجثا أبونا توما في قلايته المباركة خاشعًا، وكأنه
عائدًا من سفر بعيد، وبلاد نائية، ولم لا ؟
وها قد شاخ أكثر من عشرة سنوات في ليلة واحدة
وساعات قلائل، وأخذ يقبل الجدران والأيقونات ويجهش
بأكيًا. نادماً وآسفًا لما حدث، وكأنه يطلب الصفح
والسماح والعفو والغفران.
وصلّى...

اللهم إني أخزى وأخجل أن أرفع وجهي أمامك،
يا من قلت: من نظر إلى امرأة ليشتتها فقد أخطأ بها في
قلبه..

عيناى نظرتا، وقلبي اشتهى، وأفكاري تنجست،
فلذلك أصرخ إليك نادماً أخطأت يا أبتاه في السماء

وقدامك، ولست مستحقًا أن ادعى لك ابنًا بل اجعلني
كأحد أجرائك (لو ١٥: ١٩)

فإن الرحمة هي من قبلك، مع العشار أطلب
متنهدًا، مع المرأة الخاطئة أسألك باكيًا، ومع اللص أصرخ
متضرعًا:

أذكرني يا رب.. أذكرني دائمًا وكل حين.. ضعني
أمامك يا رب فإنني من الحالات الحرجة جدًا التي تستحق
اهتمامك كل حين، والنظر إليها على الدوام..

أذكر يا ربي نفسي الضعيفة الشقية. اقطع عني
كل لذات الجهل والصبأ. لكي لا يكون لي هذا ثقلًا في
جواب يوم الدينونة المرهوبة، لا تهلكني بآثامي، ولا
تغضب إلى الأبد.

أذكر اسمي، وأقم دعواي.. دعوى خاطئ مُدان
يطلب أن يتصالح معك.

ونظر صورة للقديس الأنبا مقار وقال
أشكرك يا رب،

أشكرك يا أبي القديس الأنبا مقار،
لقد اعتدتَ على أن تستر، فلم تفضحني وتظهر
ضعفي، إلا بالقدر الذي أقامي من سقطتي
وسمح برجوعي.

آه يا أبي أنطونيوس منذ مدة لم أنظر إلى وجهك..
لا تحزن ولا تغضب يا أبي، السماء كلها في غاية
الفرح والتهليل، فكيف تحزن أنت الآن... وشعر
أنه يبتسم. وإذا بنظره يقع على الآية التي تقول
”لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم
المسيح“ (غل ٣: ٢٧) وفرح وتهلل ”أعظمك يا
رب لأنك احتضنتني ولم تشمت بي أعدائي“
ونظر إلى جسمه ويديه ورجليه.

هذه أعضاء السيد المسيح.

نعم لم تتغير ولم تفعل الشر، وقد مات تيار الإثم

(٢٥)

... نعم يا سيدي بولس الرسول ”أحيا لا أنا بل المسيح يحيا في“

وابتسم أنبا مقار.

وفرح أنبا بيشوي.

وتهلل أنبا صموئيل.

وسبح أنبا بسنتاؤس.

ورنم أنبا موسى.

مع جوقة من الملائكة، وكل سكان السماء.

والآن وقد انضم إلى زمرة الأبرار؛ ليتمتع بحياة هادئة مباركة مع الرب يسوع المسيح، وهو يرغم ترنيمات سماوية بدون كلل ولا ملل، حتى صار له بحق أن يهتف مع القائل ”لتمت نفسي موت الأبرار ولتكن آخرتي كآخرتهم“ (عد ٢٣: ١٠) نعم. من لا يتجنب الصغائر ينزل شيئاً فشيئاً في الكبائر.

أليس من مستصغر الشرر جاءت النار
وتصاعدت وأكلت الكل وحدث ما حدث ؟
هكذا تعوّد أبونا توما أن يردد منذ أن جاءت
التجربة قديماً ومرت بسلام.

فكلما داعبه شيطان المجد الباطل وحب المديح،
أو استهوته العظة وكلمة المنفعة تحسس تجاعيد التجربة،
وتذكر سريعاً القصة كاملة؛ لكي لا تغيب عن نصب
عينيه حياته الأولى، والتجربة ومرارة نفسه وآلام مدبره
ودموع الإسقيط، وبكاء صديقه الراهب غبريال.

وقد أدرك تمام الإدراك أن

الراهب هو من مات (٢٦) عن الكل والتصق بالله

(٢٦) كلمة مات تعني ينفصل ويبتعد عن الناس

صدر من هذه السلسلة

- (١) لن تموتنا، هكذا قالت الحية
- (٢) ردني كالقديم وجدد أيامي
- (٣) من يطفئ لهيب النار عني؟
- (٤) وأيضاً، أهى صراخ
- (٥) مالك نائماً قم أصرخ إلى إلهك
- (٦) ساكنة القبر المجاور
- (٧) أذلتُ بالصوم نفسي
- (٨) اسمي مارين يا سيدي
- (٩) قد اقترب منكم ملكوت الله

وهل الله سيقبلنى يا أبى بعد كل هذا التفكير
فى الخطية؟ ... بل وإنى قد اتخذ خطوات
عملية نحو السقوط ...؟

والأهم يا أبى

+ كيف أستريح أنا وأعرف أيضاً إن
كان الله فعلاً قد قبل توبتى؟
+ فأين ملائكة الماضى وأنبياء القديم؟

أريد أن أسمع
الرب قد نقل عنك خطيتك فلا تموت ..
هذا هو الكتاب الذى بين يديك

عزيزى القارئ

المؤلف،

